غزوة بدر، بين القرآن والشعر

للأستاذ أحمد أحمد بدوى

— ١ —
بين القرآن

لغزوة بدر أثر كبير فى حياة الدولة الإسلامية الناشئة ففيها جمع المكيون أمرهم ، وحشدوا قوتهم ، وأقبلوا بجموعهم ، يريدون القضاء على هذه الجماعة التى عابت دينهم ، وسفهت أحلامهم ، ووجدوا أن الفرصة التى طالما تمنوها قد واتتهم بمهاجمة محمد وصحبه ، فربما أمكنهم فى هذه المعركة قتل الرسول ، فيمضى دينه معه ، ويعودون إلى ما كانوا عليه من قبل ، لا ينغص عليهم حياتهم دعوة إلى نبذ ما ألفوه ، وطرح ما ورثوه عن آبائهم من عقائد وعادات

ولكن الدائرة دارت عليهم ، على غير ما كانوا يؤملون ، وانتصر المسلمون انتصارا مؤزرا ، فقتلوا فيه جما من رجالات قريش ، وأسروا طائفة أخرى ، وعاد الرسول وصحبه فرحين بانتصارهم ، مبتهجين بما أفاء الله عليهم ، ورجع المكيون يحرقون الأرم على ما نزل بهم من هزيمة نكراء

وقد نزل من القرآن الكريم فى هذه الغزوة المباركة سورة كاملة ، هى سورة الأنفال ، تنوع فيها القول بين حديث عن المؤمنين ، وحديث عن المشركين ، وسن أحكام جديدة يقتضيها هذا العهد الجديد من عهود الجهاد

تحدثت السورة عن هذه الغزوة ، فتغلغلت إلى أعماق نفسية المؤمنين ، فحدثتنا عن كراهة

الله عليه وسلم « المؤمن من أهل الايمان بمنزلة الرأس من الجسد يألم المؤمن لأهل الايمان كما يألم الجسد لما فى الرأس » والأحاديث الواردة فى هذا المعنى كثيرة مستفيضة . وقد محت الرابطة الاسلامية الفوارق بين الناس ، فلا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى فلا جنسية ولا لون ولا إقليمية ولا شيء مما إلى ذلك يفرق بين الناس ، وقف سلمان الفارسى يقسم الغنائم بين المسلمين فى إحدى الوقائع بين المسلمين والفرس ، وفى الغنائم جواهر فارس وتيجان كسرى ، فنظر إليه أحد زعماء الفرس مغيظاً وقال : يا سلمان إنها أمجاد قومك تسلمها لهؤلاء العرب ! فقال سلمان : لست من أبناء الفرس ، وإنما أنا ابن الاسلام

وقد كفلت المبادئ الاسلامية السعادة لجميع أفراد المجتمع ، وإن كانت هذه المبادئ تحتاج فى هذا العصر إلى اجتهاد وتنظيم لتوافق روح العصر وتساير الركب ؛ وهى حافلة بالذخائر التى يجب أن نكد فى استخراجها ونحسن تطبيقها . هذا هو الضمان الاجتماعى التى تقوم به الآن وزارة الشؤون الاجتماعية ، ليس جديدا على الاسلام ، فقد كان يعمل به فى العصور الاسلامية المتقدمة . ومما يتصل بذلك ما حكى عن عمر أنه مر بشيخ كبير يسأل الناس فسأله عن حاله ، فلما عرف ضعفه وحاجته ، قال له : لقد ظلمناك ، أخذنا منك الجزية فى شبابك ولم نتصدق فى كهولتك وأمر له بدينارين كل شهر من بيت المال

وأحب أن أنبه إلى نقطة مهمة فى هذا الموضوع ، وهى أن الاسلام لا يقصد بتشريعه المسلمين وحدهم ، وإنما هو يعتبر المواطنين من أهل الأديان الكتابية الأخرى كالمسلمين ، لهم مالهم وعليهم ما عليهم فهم أفراد من الأمة يظلهم النظام الاسلامى كما يظل المسلمين ، وهم أحرار فى عباداتهم ، ولكنهم يشاركون المسلمين فى الحقوق والواجبات ، فكل نظام إسلامى يشمل من يعايش المسلمين فى بلادهم من أهل الكتاب ، فهو يعتبرهم « إسلاميين » فالاسلام يجمعهم والمسلمين ، وإن كان لكل عبادته ، وهذه نقطة أخرى تدحض من يصف الدولة الاسلامية بأنها دينية على معنى أنها تقوم على صالح من ينتمى إلى الدين الاسلامى فقط

الإسلام ذخيرتنا ، وفيه كل ما نحتاج إليه ، لتقدمنا وإصلاح أحوالنا ، وهو نظام عالمى يكفل للناس الحرية والاخاء والمساواة ، ويجب أن نحرص عليه وندعو إليه ، لا أن نتركه ونستجيب لدعوات النظم الأخرى .

عباس مضر

بعضهم للخروج إلى القتال كراهة مليئة بالخوف والجزع، وقد دفعهم ذلك إلى جدال الرسول جدالا عنيفا ، برغم ما يسوقه الرسول من حجج ، يؤيد بها ما يريده من الخروج إلى حرب القرشيين ، ويصور القرآن فى صراحة جزع هؤلاء إذ يقول : « كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ، وإن فريقا من المؤمنين لكارهون ، يجادلونك فى الحق بعد ما تبين ، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون » ولعل قلة المسلمين يومئذ هى التى دفعت هذا الفريق إلى الجدال ، وإلى الرغبة فى أن يستولوا على أموال المكيين ، ويعودوا المدينة بلا قتال . وهنا يذكر القرآن أن الله لم يخرجهم من ديارهم رغبة فى مغنم يحصلون عليه ، ولكن يريد أن يثبت بهم دعائم هذا الدين الجديد ، وينصر الحق « ويقطع دابر الكافرين »

وتصور السورة المؤمنين ، وقد وصلوا إلى ميدان المعركة ، شاعرين بضعفهم ، لاجئين إلى الله أن يمدهم بقوة من عنده ، فيمضى الرسول مقويا من روحهم المعنوية ، ويمدهم بأن الله سيمدهم بالملائكة ينصرونهم ، حتى تطمئن قلوبهم ، ويملأ التفاؤل أنفسهم ، وكان لذلك أثره ، فثبتوا فى المعركة ثباتا أذهل أعداءهم ، وملأ قلبهم بالوهن والرعب ، حتى تمكن المسلمون من ضرب أعناقهم وبتر أعضائهم ، « إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم ، فثبتوا الذين آمنوا ، سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق ، واضربوا منهم كل بنان »

ويرسم القتال ميدان القتال ، وقد اتخذ فيه المسلمون أماكنهم بالعدوة الدنيا من وادى بدر ، واتخذ الأعداء أماكنهم بالعدوة القصوى منه ، وكأنما يريد القرآن ألا ينسوا هذا الموقف ، وأن يذكروا ما كان يخالطهم فيه من مشاعر وإحساسات ، ويسجل شعور الطائفتين عندما تراءى الجمعان ، فقد خيل للمسلمين أن أعداءهم قلة ، فأقبلوا مستميتين فى القتال حتى هزموهم ، وخيل للمشركين أن أصحاب محمد قلة ، فخاضوا غمار المعركة مستهينين ، وقد ألقى فى نفس الطائفتين هذا الشعور ، ليتم ما أراده الله من انتهاء المعركة بما انتهت به ، انتهاء أوحى إلى نفوس المسلمين الشعور بقوتهم ما داموا ينصرون الحق ، ويذودون عن الدين الصحيح ، حتى لكأن الله يدافع عنهم ، ويذود دونهم ، « إذ أنتم بالعدوة الدنيا ، وهم بالعدوة القصوى ، والركب أسفل منكم ، ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد ، ولكن ليقضى الله أمرا كان مفعولا ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حى عن بينة ، وإن الله لسميع عليم ، إذ يريكهم الله فى منامك قليلا ، ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ، ولتنازعتم فى الأمر ، ولكن الله سلم ، إنه عليم بذات الصدور ، وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ، ويقللكم فى أعينهم ، ليقضى الله أمرا كان مفعولا ، وإلى الله ترجع الأمور » . وهو عندما يذكرهم بالله وقوته ، حين يقول : « فلم تقتلوهم ، ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ، ولكن الله رمى » — يملأ قلوبهم ثقة بالله ، واطمئنانا إلى نصره لهم ، فتقوى روحهم المعنوية ، ويقدمون على القتال بلا خوف ولا رهبة

وتحدثت السورة عن المؤمنين ، وأخذت تحثهم على طاعة الرسول ، بعد أن تبينوا يمن رأيه ، والنجاح فيما دعاهم إليه ، وهنا ينفر من العصيان ، مخرجا العاصين من عداد بنى الإنسان ، مذكرا إياهم بهذه النعمة الشاملة التى أسبغها عليهم ، وهى نعمة أمنهم بعد الخوف ، ونصرهم بعد الضعف ، فجدير بهم أن يستجيبوا لله وللرسول وألا يخونوهما ، وألا يدعوا أموالهم وأولادهم تحول بينهم وبين هذه الطاعة ، « يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ، ... واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس ، فآواكم ، وأيدكم بنصره ، ورزقكم من الطيبات ، لعلكم تشكرون ، يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول ، وتخونوا أماناتكم ، وأنتم تعلمون . واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة ، وأن الله عنده أجر عظيم » . وإذا كانت السورة قد عنيت بسمة الطاعة هنا ، فلأن سمة الطاعة أهم صفات الجندى ، وأول خلة تطلب فيه ، وبدونها لا يمكن كسب معركة ، ولا الانتصار فى قتال ، والسورة تعدهم للجندية ، فلا غرو أن دعتهم إلى الاستمساك بأهم صفاتها

كما تحدثت حديثا طويلا عن المشركين ، وصفت فيه موقفهم

من الرسول ، وموقفهم من القرآن ، وموقفهم من الدين الجديد وتعاليمه :

أما موقفهم من رسول الله ، فقد دبروا له المكايد ، يريدون أن يحبسوه ، أو يقتلوه أو يخرجوه ، وكان موقفهم من هذا الدين الجديد موقف السفهاء الذين يدفعهم سوء تفكيرهم إلى أن يطلبوا آية تؤذيهم . وكان موقفهم من الصلاة سخريةواستهزاء، ويصف القرآن بذلهم الأموال لهدم هذا الدين الجديد ، ويسخر من ضياعها سدى ، قال سبحانه . « وإذ يمكر بك الذين كفروا ، ليثبتوك (١) ، أو يقتلوك ، أو يخرجوك ، ويمكرون ، ويمكر الله والله خير الماكرين ، وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا : قد سمعنا ، لو نشاء لقلنا مثل هذا ، إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ، أو ائتنا بعذاب أليم ، ... وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء (٢) وتصدية (٣) ، فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ، إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ، ليصدوا عن سبيل الله ، فسينفقونها ، ثم تكون عليهم حسرة ، ثم يغلبون ، والذين كفروا إلى جهنم يحشرون »

والقرآن فى هذه السورة يصور نفسيتهم عندما جاءوا إلى المعركة ، فقد كان الغرور يملأ أفئدتهم،وكانوا يرغبون رغبة ملحة فى أن يطير ذكر خروجهم فى العرب ، وأن يخنقوا هذا الدين الجديد ، وقد أصغوا إلى ما غرهم به الشيطان وما وعدهم من النصر ولكنه لم يلبث أن تركهم وحدهم فى ميدان المعركة لمصيرهم المشئوم . فقد طار غرورهم تحت شدة وطأة الضربات القوية التى كالها المسلمون لهم ، والقرآن يصور ذلك فى أسلوب أخاذ، فيقول « ولاتكونوا كالذين خرجوامن ديارهم بطراورئاءالناس، ويصدون عن سبيل الله ، والله بما يعملون محيط ، وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم ، وقال : لا غالب لكم اليوم من الناس ، وإنى جار لكم، فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه ، وقال : إنى برىء منكم ، إنى أرى مالا ترون ، إنى أخاف الله ، والله شديد العقاب »

ومع تهديد القرآن المشركين ، وتوعده لهم قائلا : « إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ، وإن تنتهوا فهو خير لكم ، وإن تعودوا نعد ، ولن تغنى عنكم فئتكم شيئا ولو كثرت ، وأن الله مع المؤمنين » — يفتح أمامهم باب الأمل ، ويمهد أمامهم السبيل للعودة إلى الحق ، فوعدهم بأن يغفر لهم الآثام الماضية إن هم عادوا إلى الحق وتركوا اللجاج فى الطغيان ، « قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ، وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين » وذكرهم القرآن بآل فرعون ومصيرهم عندما « كفروا بآيات الله ، فأخذهم بذنوبهم ، إن الله قوى شديد العقاب » ؛ وصور لهم المصير المؤلم الذى ينتظرهم ، إذا هم أصروا على عنادهم ، وتمادوا فى كفرهم ، فإن الملائكة يستقبلونهم شر استقبال ، ويدفعونهم إلى عذاب أليم ، « ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ،ذلك بما قدمت أيديكم ، وأن الله ليس بظلام للعبيد » ؛ وكل ذلك يدفعهم إلى التفكير العميق ، ويثير فيهم غريزة المحافظة على الذات كى لا يلقوا بأيديهم إلى التهلكة ، وكى يعدوا منذ اليوم عدتهم للنجاة من هذا المصير .

ولما كانت معركة بدر أولى المعارك الكبرى ، فقد ضمت سورتها تعاليم يسير المسلمون عليها فى حروبهم المقبلة

وأول هذه التعاليم الثبات المستميت فى الجهاد ، وهو يتوعد شديد الإيعاد من يفر من المعركة ، لما للفرار من الأثر فى تحطيم وحدة الجيش والذهاب بماله من قوة معنوية ، فقال سبحانه : « يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلاتولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ، ومأواه جهنم ، وبئس المصير »

ومن تلك التعاليم ألا يسمحوا للنزاع بأن يدب بينهم ، وأن تكون الطاعة لله وللرسول شعارهم ، « يأيها الذين آمنوا ، إذا لقيتم فئة فاثبتوا ، واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ، وأطيعوا الله ورسوله ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا ، إن الله مع الصابرين »

ومنها أن تكون العقيدة هى التى تدفعهم إلى الجهاد ، لا محبة الاعتداء ، ولا الغرور والرياء ، وقد سبق أن بينا كيف نعى على المشركين غرورهم وبطرهم

(١) أثبته حبسه (٢) صفير (٣) تصفيق